فديريجو

للكاتب الفرنسي بروسبير ميريميه

بقلم الدكتور حسن صادق

زعموا أنه كان بإحدى المدن الايطالية رجل يسمى فديريجو ، وسيم الطلعة رائع القسمات بديع التكوين ، إلى أدب جم وحديث عذب وحلم مستطاب . ولكنه كان ماجناً مستهتراً يألف الرجس والفجور . كان كلفاً بالنساء مولعاً بالميسر لايطيق الصبر عنه . ولم يكن يؤدى قط (فريضة الاعتراف) أو يذهب إلى الكنيسة إلا ليبحث فيها عن فرص تعبد له سبل الخطيئة .

شاء له الحظ أن يربح فى الميسر أموال اثنى عشر شاباً من أسر كريمة ، وأن يضرب عليهم ذل الفاقة وظلم الخراب ، فاضطروا إلى الاندماج فى سلك الجندية المأجورة ، وماتوا وهم يحاربون القواد المأجورين الذين يستخدمهم الملك ، محرومين من الاعتراف والطقوس الدينية الأخيرة .

دارت الأيام دورتها وخسر فديريجو كل مارثح ثم جميع مايملك ، فانحدرت عنه النعمة ولم يبق له إلا بيت عتيق قائم فى مكان هادئ خلف بعض التلال ، فذهب إلى هذا البيت وفى صحبته الاكتئاب والحسرة ليعتزل الاجتماع ويخفى بؤسه عن الناس .

عاش فى هذه المحنة ثلاث سنين كان فى أثنائها يخرج إلى الصيد نهاراً ويلعب الورق ليلا مع فلاح يزرع له الحديقة الصغيرة على أن يأخذ نصف غلتها أجراً له .

وفى أحد الأيام ، عاد إلى البيت مبتهجاً لأنه وفق فى الصيد إلى درجة لم يعهدها من قبل . وما أن استقر به المقام حتى طرق المسيح ، ومعه اثنا عشر رسولاً عليه بابه وسأله الضيافة .

سرت بنفس فديريجو عبقة من السرور حين رأى ضيوفاً يطرقون بابه فى يوم أصاب فيه صيداً كثيراً ، وأدخل الضيوف فى بشر وإيناس وأعد لهم كل ماعنده من ألوان الطعام ، ثم رجا منهم أن يلتمسوا له المعذرة إذا رأوا فيه العجز عن أن يعاملهم كما يتطلب قدرهم لأن الزيارة جاءت على غير انتظار .

نظر إليه المسيح الذى يعرف دون ريب الغرض الذى يقصد إليه من زيارته ، وغفر له هذا الشعاع البسيط من الزهو فى سبيل إظهار ميله الشديد إلى إكرام ضيوفه ، ثم قال له : « سنكتفى بما عندك ، فمر باعداد العشاء لأننا فى وقت متأخر » ثم أشار بيده إلى القديس بطرس وقال : « وهذا جائع إلى أقصى درجات الجوع »

أسرع فديريجو إلى إجابة هذا الطلب ، وأراد

أن يقدم إلى ضيوفه شيئاً آخر فضلا عن صيده ، فأمر الفلاح أن يذبح الجدى الذي يملكه وأن يشويه على السفود .

ولما هيء الطعام وجلس الضيوف إلى المائدة شعر فدريجو بأسف ، لأن نبيذه لم يكن جيداً إلى درجة ترضيه ، فقال للمسيح : « سيدى ، بودي لو يكون النبيذ أجود من هذا ، ولكنى أقدمه إليكم كما هو بقلب خالص »

لم يتكلم المسيح ولكنه ذاق النبيذ وقال « كيف تقول ؟ ! ومم تشكو ؟ ! نبيذك بلغ الغاية فى الجودة . وإنى أسأل الرأى هذا الرجل » وأشار بأصبعه إلى بطرس الرسول .

ذاق بطرس النبيذ واستمرأه وأعلن أنه حلو جيد ، ثم طلب من مضيفه راجياً أن يشرب معه فأقر فدريجو رأى بطرس بإيماءة من رأسه ، وقد أخذ قوله وقول المسيح على سبيل المجاملة والأدب ؛ ثم تناول جرعة ، فعراه الدهش الشديد ، لأنه وجد أن النبيذ ألذ طعما من كل نبيذ ذاقه في حياته ، حتى أيام كان يملك الثروة الضخمة ، ويغشى أفخر المشارب . فعرف من هذه المعجزة أن « المنقذ » في بيته ، فنهض من مكانه فى إجلال وخشوع كأنما هو غير جدير بأن يأكل مع هذه الجماعة المقدسة .

ولكن المسيح أمره بالجلوس فأطاعه فى احترام وفير . وبعد انتهاء العشاء ، انسحب المسيح ورسله إلى الحجرات التى أعدت لهم ، وبقى فدريجو مع الفلاح يلعب الورق كعادته ويشرب ما تبقى من النبيذ .

وفى صباح اليوم التالى اجتمعت الجماعة المقدسة فى الردهة فقال المسيح لفدريجو : « نشكر لك استقبالك الجميل ونريد أن نجازيك عليه أحسن الجزاء ، فتمنّ علينا ثلاثة أشياء نستجب لك . لأننا قد منحنا كل قوة فى السماء وعلى سطح الأرض وفى مستقر الأرواح »

فلما سمع ذلك فدريجو ، أخرج من جيبه الورق الذى يحمله معه دائماً وقال : « أيها المنقذ العظيم ، أريد أن أربح فى كل مرة ألعب فيها بهذا الورق » فأجابه المسيح فى هدوء : « لك ما تريد »

وكان بطرس الرسول جالساً إلى جانب فدريجو فقال له بصوت خافت : « كيف تطلب هذا أيها الخاطىء التعس ؟ ! ينبغي أن تسأله السلام لروحك وأن يغفر لك ذنوبك وخطاياك » فأجاب فدريجو مطمئن النفس : « إنى لا أشغل بالى كثيراً بسلام روحى » فقال المسيح : « لك عندى شيئان آخران تسألنى إياهما »

— سيدى بما أنك كريم إلى هذا الحد فانى أرجو منك إذا شئت وتفضلت شيئاً يسيراً خلاصته أن أي شخص يتسلق شجرة البرتقال التى تظلل بابى وتمتد فروعها إلى نافذتى ، لا يستطيع النزول إلا بإذنى ومشيئتي .

فأجابه المسيح إلى ما طلب . وفى تلك اللحظة ضرب بطرس الرسول فدريجو على مرفقه ضربة قوية وقال مغمغما : « أيها الخاطىء الشقي ، ألا تخاف عذاب جهنم الذى تقودك إليه خطاياك ؟ ! لم يفت الوقت بعد ، وفى استطاعتك أن تسأله مكاناً

فى جنة الخلد » فأجاب فدريجو : « ليس هذا بالأمر الذى يتطلب العجلة » ثم ابتعد عن القديس بطرس حتى لا يضايقه بملاحظاته .

وطلب المسيح من مضيفه أن يسأله الأمنية الثالثة ، فقال فدريجو : « أريد أن أى مخلوق يجلس على هذا المقعد المجاور للموقد لا يستطيع أن ينهض إلا بإذنى ومشيئتى » . فاستجاب المسيح لهذا الطلب وغادر البيت هو ورسله .

وما إن اجتاز آخرهم عتبة الباب حتى أراد فدريجو أن يجرب فضيلة الورق ، فاستدعى الفلاح ولعب معه دوراً دون أن يلقى باله إلى اللعب ، فربح ؛ ثم لعب عدة مرات حتى ثبت لديه أن أمنيته قد تحققت .

غادر بيته وذهب إلى المدينة ، واستأجر أجمل جناح فى أفخم الفنادق . وانتشر خبر وصوله فى سرعة عجيبة ، فتقاطر عليه رفاقه الأقدمون فى اللعب والمجون وقالوا : « كنا نعتقد أننا لن نراك أبداً لأن بعض الناس قالوا فى صيغة اليقين إنك زهدت فى مسرات الحياة وأصبحت ناسكا : » فأجاب فدريجو وعلى شفتيه ابتسامة غامضة : « وهم على حق » فسأله أحد رفاقه : « إذن كيف كنت تقضى وقتك أثناء الأعوام الثلاثة التى لم يرك فيها أحد ؟ » فأجاب فدريجو فى لهجة الورع : « فى الصلاة يا أصدقائى الأعزاء ، وها هو ذا كتاب الصلاة » ثم أخرج من جيبه الورق الذى يحرص عليه الحرص كله .

أثار هذا الجواب ضحكاً عالياً واعتقد كل فرد من السامعين أن فدريجو قد أصاب ثروة فى بلاد أجنبية على حساب مقامرين أقل مهارة منه ، وشعروا بالرغبة الشديدة فى الحصول على هذه الثروة الجديدة فى أقرب وقت مستطاع .

وأراد بعضهم أن يجره فى الحال إلى اللعب ، ولكن فدريجو رجا منهم أن يرجئوا اللعب إلى المساء .

وانتقل بالجماعة إلى بهو كبير مدت فيه موائد الطعام والشراب بأمره ، فوقع ذلك من نفوسهم موقعاً حسناً ونال جميل إعجابهم .

كان هذا الغداء أكثر يشراً من عشاء الرسل . وقدم فدريجو إلى رفاقه أجود أنواع النبيذ وأشهى صنوف الطعام . وقبل مجيء هؤلاء الرفاق كان فدريجو قد حصل على ورق يماثل الذى معه تماما حتى يستطيع عند الحاجة أن يحله محل الآخر وأن يخسر مرة فى كل ثلاث مرات أو أربع فلا يثير بأذهان رفاقه أية خلجة من الشك فى اللعب . وكان يحمل الورق الأول فى جيبه الأيمن ويحمل الآخر فى جيبه الأيسر .

ولما انتهى الغداء اجتمعوا حول منضدة خضراء وضع عليها فدريجو الورق العادى ، وحدد زمناً للعب ومبلغاً معقولاً من المال . وأراد أن يشعر بلذة اللعب ، وأن يعرف مبلغ قوته ومهارته ، فلعب الدورين الأولين فى حرص شديد ، ولكنه خسر وشعر فى دخيلته بألم وحسرة ، ثم طلب للجميع نبيذاً وانتهز فرصة انهماك الرابحين فى احتساء الشراب نخب ربحهم الماضى والمستقبل ؛ وأخفى باحدى يديه الورق العادى ووضع فى مكانه بيده

الأخرى الورق المبارك . وفى الدور الثالث لم يعط فدريجو أقل التفات للعب ، واستطاع أن يلاحظ الآخرين فوجدهم يغشون فى لعبهم ويسرقون . وهذه المعرفة الباغتة بعثت فى نفسه سروراً كبيراً وجعلته يعتقد أنه يستطيع أن يحصل على ما فى جيوبهم وهو هادئ الضمير ، لأن خرابه الماضى كان منشؤه غشهم لا حسن لعبهم أو ضخامة ثروتهم. وفى تلك اللحظة جالت بخاطره ذكرى ثروته الماضية وذكرى الاثنى عشر شاباً الذين أقام يسره على عسرهم وخرابهم ، وآمن بأنهم كانوا أشرف اللاعبين الذين صادفهم فى حياته ؛ وندم للمرة الأولى على النجاح الذى أحرزه عليهم . ثم حلت فى وجهه سحابة قاتمة تحل أشعة الفرح ، وتنهد تنهدة عميقة وهو يربح الدور الثالث .

اتصل هذا الدور بأدوار ربح أخرى لفدريجو واستطاع فى ذلك المساء أن يجمع مبلغاً وفيراً من المال دفع منه ثمن الغداء الفاخر وأجر جناحه في الفندق شهراً كاملاً . وكان هذا كل ما يريد فى ذلك اليوم . وأصاب الكدر الشديد رفاقه ، ولكنهم وعدوه قبل أن يغادروا الفندق بالعودة اليه فى اليوم التالى .

وفى الأيام التالية عرف فدريجو كيف يخسر ويربح فى اللحظات الملائمة ، فجمع فى وقت قصير ثروة هائلة دون أن يشك أحد فيه أو يدرك سبب ربحه الحقيقي . ثم غادر الفندق ليعيش فى قصر كبير اشتراه ، كان يقيم فيه من حين إلى آخر أبهج الحفلات وأفخمها . وأصبحت أجمل النساء يتشاحن فى سبيل نظرة من نظراته ؛ وكان يقدم للزائرين فى كل يوم أفخر أنواع النبيذ وأبدع ألوان الطعام ، واشتهر قصره بأنه معهد المسرات .

وبعد عام قضاه فدريجو في لعب لايدعو إلى الشك فيه ، عزم على أن يجعل انتقامه كاملا فظيعاً من جميع كبار الأغنياء فى البلد ، ثم استبدل بالجزء الأكبر من ذهبه أحجاراً كريمة ، ودعا هؤلاء الأغنياء إلى حفلة شائقة منقطعة النظير ، وأعلن أنه سيجلب إليها أعظم الفنانين والمغنين . وأنها ستختم بمقامرة جسيمة هائلة ، فحضر بعضهم ومعه كل ما يملك من الذهب ، والبعض الآخر اقترض المال الكثير من اليهود . وفى تلك الليلة ربح فدريجو كل هذا المال وسافر به بعد انصراف المدعوين

ومنذ ذلك الوقت اتخذ لنفسه قاعدة لا يحيد عنها ، وهى ألا يلعب بالورق المبارك إلا مع اللاعبين ذوى النية السيئة ، لأنه يستطيع بمهارته أن يلعب مع الآخرين بالورق العادى . زار مدناً كثيرة مقامراً فى كل مكان رابحاً فى كل موطن ، وكان يشترى من كل بلد ما ينتجه من البدائع . وبرغم ذلك لم ينس قط صرعاه الاثنى عشر شاباً ، وكانت هذه الذكرى الأليمة تكدر عليه صفو حياته وتبلبل باله فى كل حين .

ولما ضاق ذرعاً بها ،عزم ذات يوم على أن ينقذهم أو يهلك معهم ، فرحل إلى جهنم تنفيذاً لغرضه وبيده عصا وعلى ظهره حقيبة ، ولم يصحب غير كلبته العزيزة عليه (مارشسلا)

بلغ صقلية وتسلق جبل (جيبل) ثم هبط من فوهة البركان إلى جوفه ، وظل يتعمق فى الهبوط إلى مسافة تماثل ارتفاع الجبل حتى أشرف على فناء

كبير يؤدى إلى باب الجحيم .

وكان يحرس هذا الفناء كلب ذو رؤوس ثلاثة فاجتازه فدريجو دون مشقة . وبينما كان الكلب يغازل مارشسلا ويتألفها ، قرع فدريجو الباب ، فلما فتح سأله بليتون خازن النار :

— من أنت ؟

— المقامر فدريجو

— وماذا تريد ؟

— بليتون ، إذا كنت تقدر أن أول وأمهر مقامر على سطح الأرض يكون جديراً بأن يلعب معك ، فانى أقترح عليك ما يأتى : نلعب عدداً من الأدوار كما تشاء ، فاذا خسرتُ دوراً واحداً كان لك روحى ملكا حلالا تضمه إلى الأرواح الأخرى التى تعمر دولتك . وإذا ربحتُ كان لى الحق فى اختيار روح من رعاياك فى كل مرة أحمله معي

— لك حكمك

وطلب ورقاً للعب فقال فدريجو فى لهفة : « هاهو ذا الورق » وأخرج من جيبه الورق المبارك وشرعا يلعبان .

ربح فدريجو الدور الأول وطلب من بليتون روح (ستفانو جابي) أحد الإثنى عشر الذين يريد إنقاذهم ، فأجيب إلى طلبه فى الحال . وضع هذا الروح فى الحقيبة ثم ربح دوراً ثانياً وثالثاً إلى الدور الثانى عشر ، وفى كل مرة كان يتسلم الروح الذى يريد ويضعه فى الحقيبة .

ولما تم له ما أراد ،عرض على بليتون أن يواصل اللعب ، فأجابه وقد أخذ تذمره : « بكل سرور ، ولكن لنخرج قليلا لأنى لا أدرى أية رائحة كريهة قد انتشرت الآن فى هذا المكان » وهو فى الواقع كان يبحث عن وسيلة للخلاص من فدريجو . فلما اجتاز هذا الباب ومعه حقيبته وعصاه ، صاح خازن النار أن أغلقوا الباب خلفه . عاد فدريجو إلى بيته القديم المنعزل ، وعزم على قضاء بقية عمره فيه . وبعد عودته ببضعة أشهر ، وضعت كلبته مارشسلا عدداً كبيراً من الشياطين غريبة التكوين ، فألقاها جميعاً فى الماء .

وبعد انقضاء ثلاثين عاماً (وقد بلغ فدريجو السبعين من عمره) جاءه الموت وأنذره وطلب إليه أن يعد ضميره لأن ساعته قد حانت . فقال له فدريجو المحتضر :

— إنى على أتم استعداد ، ولكن قبل أن تختطف روحى أيها الموت ، أرجو أن تعطينى برتقالة من هذه الشجرة التى تظلل بابى . حقق لي هذا الرجاء فأموت راضياً ممتناً

— إذا لم يعوزك غير هذا ، فأنا لا أرفض تحقيق رجائك

ثم تسلق الشجرة ليقتطف برتقالة . وحين أراد النزول عجز لأن فدريجو أراد له هذا العجز . فصاح الموت :

— آه ! لقد خدعتنى يا فدريجو ! إنى الآن فى قبضة يدك وتحت سلطانك . رد إلىّ الحرية أعدك بعشرة أعوام تقضيها في الحياة

— عشرة أعوام ! ما أشد بخلك يا عزيزى ! إذا أردت النزول يا صديقي وجب عليك أن تكون أكثر سخاء من ذلك

— أهب لك عشرين عاماً

— أتهزأ بي ؟ !

— أعطيك ثلاثين

— لم تصل بعد إلى الثلث

— أتريد إذن أن تعيش قرنا ؟ !

— نعم يا صديقي

— أنت هازل يا فدريجو لا تعرف الاعتدال

— ماذا تريد ؟ أحب الحياة

— إذن اتفقنا على مائة عام ما دام الظرف يحتم الوصول إلى هذه النتيجة

وبعد هذا الاتفاق استطاع الموت أن ينجو بنفسه. وما إن غادر البيت حتى نهض فدريجو فى صحة كاملة وبدأ حياة جديدة فى قوة شاب وتجربة شيخ. واستمر فى إرضاء شهواته وعلى الأخص الجسدية منها دون أن يفعل إلا قليلا من الخير كلما سنحت له الفرصة ، دون أن يفكر فى سلام روحه ، أى عاش كما كان يعيش فى أيامه الأولى

مضت المائة عام وجاءه الموت ووجده طريح الفراش فقال له : « هل أنت على استعداد ؟ » فأجاب فدريجو : « نعم . لقد أرسلت فى طلب قسيس يتقبل اعترافى . اجلس على هذا المقعد قليلا . إنى لا أنتظر غير إنجاز الطقوس الدينية الأخيرة ثم اندفع معك نحو الخلود »

فجلس الموت على المقعد شفقة على فدريجو وانتظر ساعة كاملة ولم يحضر القسيس . ولما استتم الجلوس قال :

— أيها الشيخ ، ألم تجد من الوقت فى الزمن الطويل السابق ما تنظم فيه رحيلك ؟

— أقسم لك أنى كنت لاهيا عن ذلك بعمل آخر

ثم تبسم فى سخريته

فقال الموت وقد تملكه الغضب من تبجح فدريجو : « إذن ليس لديك إلا دقيقة واحدة تحياها » وحاول النهوض من مقعده . فقال فدريجو « رباه ! أعرف بالتجربة أنك شديد الدقة فى عملك ، ولكن أتضن علىّ ببعض أعوام أخرى ؟ »

اهتاج الموت وبذل جهدا كبيرا فى النهوض وقال : « بعض أعوام يا شقى : » فأجاب فدريجو « نعم . وثق بأنى لا أبالغ فى طلبى هذه المرة . أريد أربعين عاما فقط للشوط الثالث »

أدرك الموت أنه عاجز عن النهوض ، كما كان عاجزا حين تسلق شجرة البرتقال . وأن الذى يعجزه قوة غير طبيعية . ولكنه فى غضبه وهياجه لم يشأ أن يجيب فدريجو إلى ما طلب

فلما رأى فدريجو عناده ، قال له : « أعرف وسيلة تذهب بعنادك » ثم ألقى فى النار ثلاث قطع من الخشب فاشتعلت بعد لحظات وملأت النار جوانب الموقد . ولم يلبث الموت أن شعر بالحرارة الشديدة تكاد تحرق جلده فصاح قائلا : « الرحمة ! الرحمة : أعدك بأربعين عاما : »

ولما نطق بهذه الكلمات ، أشار له فدريجو أن ينهض من مكانه ففر هاربا وحرارة النار تكوى ضلوعه

مضت الأربعون عاما فعاد الموت إلى فدريجو ، وقد كان فى انتظاره وإلى جانبه الحقيبة . فقال الموت « حانت ساعتك فلا تحاول الإفلات منى بلا جدوى... ولكن ماذا تريد أن تفعل بهذه الحقيبة؟ »

— إنها تشتمل على أرواح الاثنى عشر شاباً الذين أنقذتهم من الجحيم فى الزمن السالف

— ليدخلوها معك

وأخذ فدريجو من شعره وانطلق به فى الهواء نحو الجنوب ، وتغلغل بفريسته فى هوات جبل (جبيل) حتى بلغ باب جهنم وطرق الباب ثلاث مرات ، فقال بليتون :

— من الطارق ؟

— جئتك بفدريجو المقامر .

فصاح خزنة النار وقد تذكر فى الحال الاثنى عشر روحاً التى خسرها : « لا تفتحوا ! إن هذا الخبيث إذا دخل تملكتى خربها ! »

فحمل الموت فريسته مكرها إلى باب « المطهر » ولكن ملاكه الحارس أبى أن يقبله لأنه فى حالة الخطيئة الكبرى .

أسف الموت جد الأسف لإفلات فريسته من جهنم والمطهر وعرف أنه مضطر إلى حملها إلى الجنة

فلما رآى القديس بطرس فدريجو قال له : « أتجرؤ على المجيء فى الحالة التي أراك عليها ؛ ألا تعرف أن السماء مغلقة فى وجوه أمثالك ؟ : ما هذا ؟ إنك لست جديراً حتى بالمطهر وتريد مكاناً فى الجنة ؟ ! »

فأجاب فدريجو : « هل استقبلتك بمثل هذه الشدة حين طرقت بابى أنت والسيد المسيح ورفاقك منذ مائة وثمانين عاماً ؟ : »

فقال بطرس الرسول فى لهجة التأنيب المشوبة بالرقة والحنان : « جميل قولك هذا ، ولكنى لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أمر الإذن لك فى دخول الجنة ، سأحمل إلى المسيح خبر حضورك وسنرى ما يقول »

ولما عرف المسيح الخبر ، خرج إلى باب الجنة ووجد فدريجو واقفاً على العتبة ومعه الحقيبة ، فى كل عين منها ستة أرواح ، فاستدر هذا المنظر شفقته وقال : « آذن لك يا فدريجو فى الدخول ، ولكن ضميرى لا يسمح بدخول الاثنى عشر روحاً التى تطالب بها جهنم »

فقال فدريجو : « كيف ذلك ؟ ألم أستقبلك فى بيتى ومعك اثنا عشر شخصاً وأكرمتكم ما استطعت إلى الاكرام سبيلا ؟ ! » .

سكت المسيح هنيهة ثم قال : « لا سبيل إلى رفض ما يطلب هذا الرجل . إذن ادخل مادمت قد استطعت الوصول إلينا » .

حسن صادق

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً